البروفيسور عبد الرحيم محمد خبير
هفهفة الجسد النحيل ورفرفة العلم الغزير

د. عبد المنعم أحمد عبد الله

رئيس قسم الآثار- كلية الآداب جامعة إفريقيا العالمية الطائف
المملكة العربية السعودية التاسع من نوفمبر 2024

بيت المال أنجبه, ولعيون أم درم أهداه فتىً للسودان يحطم قيد حبسه, فيخرج للملأ في ثوب عرسه عَلماً وعِلماً وأستاذاً لعلم نادر انتفع به وبه نفع.

لقد كان أستاذنا عبد الرحيم محمد خبير جسدا نحيلا يهفهف في مشيته, وعلما في فضاءات المعرفة الباقية يرفرف بقداسة العلم, يقبل نحوك فتستبينه وقميصه يهفهف وهو داخله, تقذفه الخطوات إليك قذفا, يبدؤك بالسلام مصافحا والكف منه قد أجدبها طول الإمساك ب «المسطرين» و القلم, وصوته ذو البحة المحببة يملؤك طمأنينة وثقة تضيف الالفة منه إليك إلي الالفة.

بهيئته تلك, دخل إلينا لأول مرة ونحن أقدم طلاب في قسم الآثار- ثقافة مادية, وإرثا بشريا تليدا, وهو القسم الجميل في غير استحالة- ليحاضرنا في المكتبة,القاعة, والآن هي المعمل. قدمته لنا البروفيسور انتصار صغيرون الزين, المحاضر حينها, ودرجتها ما تركوها تهنأ بها, وقد جاءت بها طازجة, ف « تحزمت و تلزمت « رئيسة للقسم تكابد الضرب علي أوتاد خيمته أمام «هوج الرياح» تضربه لتعصف به فتقتلعه, أو تجففه, أو تذوبه, أو حتى تخنقه فيموت و معه إلى الأبد فكرته.

لكنه بفضل الله بقي وفاء منه لهرولتها صفاءا لاستجلاب أساتذتها وزملائها, وهبوطا إلى مروة «وليدها» تتعهده وهو الأقدم في الجامعة, و في «كل البلد», بل و في الإقليم كله, وكان «حشاها» فوق ذلك, يحمل أول من صيرها «جدة».

فكان « خبير» و مثله معه, ممن كانوا يعودون بفضل زاد وقتهم عليها وطلابها, وآخرون قد استبقوا الربع منه لأهلهم و خاصة أعمالهم, بل وآخرون قد أوقفوا لها الروح منهم والأنفاس حتى لفظوها إلى بارئها بين يديها, و بين يدي بعض طلابها.

دخل خبير «القاعة» نحيلا مشحونا علما نادرا ومعرفة فذة, ومملوءا بحيوية معرفته المقطوفة عنده حديثا التي صيرته «خبيرا» في شأن الفخار الأثري. وقبل أن يحدثنا عن الفخار حدثنا بحب ملؤه الزهو أولا عن دفعتهم « التاريخية « بالقسم, وكيف شكلها الآباء الأوائل في العلم و القسم, فأصبح وصفه لدفعته ب « التاريخية « لازمة عنده و مفتتحا لكل كلامه من بعد.

وللمرء هنا أن يربط بين «خبير» ودفعته, وبين الشاعر الطبيب الرياضي الإعلامي «عمر محمود خالد» ودفعته تلك « الخطيرة» بحسب وصفه إياها هو الآخر. هما في الثقافة – عندي - سيان, فهذا مستنير مثقف أكاديمي, وذاك مستنير مثقف من رواد « التثقيف الصحي «, وكلاهما مجتمعيا «علم يرفرف, و ساريته في فلاة «. غير أن المدهش حيرة وذهولا, هو كيف تصنع « الجميلة المستحيلة « جمالا مستحيلا مستحقا للمجتمع بكل هذه الوضاءة و بكل ذاك البهاء.

وانتقل « خبير» في محاضرته يحدثنا عن الفخار وأهميته « لأهل كارنا «- وتلك لازمة أخرى من لوازمه - , فجعل من الفخار و الإنسان صنوين, فكلاهما صنعا - كما قال- من «طينة» واحدة, والأعجب أنه لفت إلى أن في شكليهما - في الغالب الأعم- شبها حتمته الغاية الحتمية من الصنع, فلكليهما شفة, وعنق, ويدان, وجسم, وقاعدة, فيا سبحان الله!

تلك المحاضرة كانت صمدية برنا بها, كغيره, استجابة, كما قال, لمناداة الأخوة والبنوة والأبوة والزمالة وهو «الزائر» حينها مع بعض رفقائه من « أرض حجاز العلم» يضربون هناك مضارب للعلم النادر و يضيفون له «رواقا «.

ف»العباس» العابس حتى في بسمته, و»سيده أحمد» اسم له, كان إيذان موعد مقدمه علينا هو صوت «طقطقة» زجاجات «البارد» في «صندوقها», وكأنها محبورة مثلنا, يحملها في ود لها وله ولنا, فتي « الكافيتريا» ذاك «الأبنوسي» ولقبه « نمرة أربعة», فيداعبنا و يقول :(بختكم, عمكم وصل يااا !). العباس عرفنا منه أن تميز «الإنسان» علي أبناء «بيئته» اختزله المولى سبحانه في تفرد خلق كف «يد» الإنسان و «ميكانيزم» حركتها, يا سبحان الخلاق البديع. فجنبنا العباس بذلك دربا من «الغلاط» وعرا محفوفا بمكاره «الإنسان و بيئته».

أما « الخبير», والكلمات هذه تكتب عنه, وفي لحظتها, فصديق له من ذلكم الربع في تلك الديار, يخبر كاتبها مستذكرا أيامه مع «الخبير» فيها فيقول: (ما خلا فيها حتة ما حفرها, وخصوصا في «الفاو»). ويا لغرابة مصادفة الأسم, ف « الفاوات» ثلاث نعرفها, يقول, («فاو» حفرها «الخبير» هناك, و»فاو» الغذاء العالمية, و»فاو» «صومعة الغذاء» في شرقنا الحبيب). فنعلق بما استبيناه لاحقا بالسير «على دروب كنزنا» خلفهم, بأن الغرابة والمصادفة قد تنتفيان إذا ما الإستجلاء الموضوعي توجه لاستكناه الصلات الحتمية بين (جنوب الجزيرة العربية و الهضبة الأثيوبية و النيل). ف»الخبير» حتى في مصادفاته ربما كان يريد أن يقول الكثير المثير « الخطير».

مرحلة لاحقة تبين الامتنان عند «الخبير» و «الوفاء», لما اختارته إدارة إحدى ثمرات «الجميلة المستحيلة» في الولاية المحاددة للعاصمة ليرعى مع الراعين فيها «وليدا « لينضم إلى «

أهـل الـكار «. جاءهـا, كـما تقـول الروايـة والعهـدة عـلى راويهـا, في رفقـة رفيقـه « الـتراثي المغامـر» يمتطيـان « صهـوة ركشـة « ابتدعـا مـن ظهرهـا وسـيلة «مسـح ميـداني» عـلي طريـق « التحـدي». المفارقـة تبـدت لكاتـب الكلـمات عنـه هـذه, لمـا طلبـت منـه الإدارة تقييـم سـيرة « الخبـير» غـير « الذاتيـة «, فكيـف تكـون «ذاتيـة» و هـي تهـم الـكل وقـد بذلـت للـكل وصنعـت مـن أجلهـم, فاعتـذرت كلـمات الكاتـب لـلإدارة حينهـا واكتفـت بالقـول: (الرجـل أسـتاذي, وكفـى!). تنازعـت « الخبـير» جامعـة عاصمـة « الجنـوب « حينهـا ليرعـى «وليـد» آخـر فيهـا, فغلبـت « الجنوبيـة « واجتذبتـه إليهـا حتـى بعـد أن نـأي الجنـوب جنوبـا, و حتـى اختطفتـه أخـيرا فيهـا يـد المنـون.

الشـاهد أن « الخبـير» كتـب كتابـا للكاتـب في القسـم الوليـد الأول, آيـة في البيـان وسـحره والروعة الأخـاذة والدقـة, يعتـذر فيـه عـن تحولـه عـن الوليـد الأول للوليـد الثـاني في (جوبـا – بحـري - جوبـا) ولم يكـن هنـاك (وبالعكـس), ويـوصي فيـه الكاتـب بإيصـال المكتـوب إلى الإدارة العليـا, وقـد فعـل, فالمكتـوب «الآيـة» لعلـه «يرقـد» هنـاك مطمئنـا ليحـدث يومـا مـا عـن تلكـم العظمـة و ذينكـما النبـل والوفـاء.

و مواقـف نبـل « الخبـير» تعـدت حـدود المـكان, لتخلـد هنـاك معـه في الزمـان, ففـي تلـك المدينـة السـاحرة في «الريـف» الأوروبي, والتـي تحيـط بحيرتهـا بهـا بحنـو حـان, وقاسـمتها بالحنـو ذاتـه اسـمها, حيـث جاءهـا مـن كل « ضواحـي الدنيـا « المـلأ «المفتونـون» بأمـر «ا لـكار السـوداني», دس « الخبـير» خلسـة في وجـدان صاحـب قلمكـم هـذا, تقريظـا لفكـرة مـا قدمـه صاحبكـم لذلكـم الجمـع, جعـل صاحبكـم مجذوبـا كمجـذوب «المجـذوب» في « ليلـة المولـد « مـن تلـك الليـالي.

والمحطـة الأخـيرة قبيـل رحيلـه «المـر», مـرارة عـرق الجبـاه « المـر», كانـت لمـا أحكـم «الخبـير» «أسـاور» رعايتـه في «إيديـن طفلـة» سلسـلتنا البضـة الخديـج المناديـة ب»القرايـة» بـلا «دق» «مـع الجميـع» وهـي موقنـة أنهـا لا « تغلبهـم».

رعـي «الخبـير» السلسـلة واستحسـن فكرتهـا, وأمدهـا بثمـرات عقلـه و فـؤاده و بصيرتـه وخلاصـة حكمتـه و التجـارب, وهـو « الخبـير» مثقفـا أكاديميـا مسـتنيرا في أمـر «السـوداني» , في تليـد مجـده وثقافتـه و حضارتـه و مباهجـه ومحازنـه, محدثـا عنـه, ولـه, في «صـدور كل المحافـل» أسـتاذا لهـا وسـيدها لـدى كل أبـواب لهـا.

وسـتبقى سلسـلة «القـراءة معـا», وكيـف لا تبقـى وقـد وصفهـا « الخبـير» ب « الإسـتنارة «, برغـم حصريـة الوصـف عليـه, وشـمول معرفتـه, وحاثـا عـلى اسـتمرارها, وموجهـا بمـا يسـد النقـص فيهـا و العيـب, و أمضاهـا مصرحـا عليهـا بقلمـه أن « تصلـح للتـداول الموسـع و النـشر».

وقـد مـضى الحبيـب إلى الحبيـب إلى الأحـب الأكـبر, محفوفـا بـكل الخـير العميـم الأشـمل, سـبق

بـه عطـاء سـخاء, و معرفيـا « شـهيا « ورث بـه اصطفـاء المصطفـين الأنبيـاء, يبدلـه بـه ربـه تـاج العلـم وكرسـيه (مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر) .

(إنا لله و إنا إليه راجعون)